

قراءات في الهبة الفلسطينية

محمد دراغمة*

الهبة الشعبية الفلسطينية:

جيل يفاجئ الجميع بلا تنظيم ولا قيادة ولا برنامج

كان صبحي أبو خليفة (١٩ عاماً)، من مخيم شعفاط في القدس، يعمل كهربائياً مع مقاول إسرائيلي في إحدى ضواحي مدينة ريشون ليتسيون، ويتقاضى أجراً يومياً جيداً نسبياً قدره ٦٠ دولاراً.

في ٨ تشرين الأول / أكتوبر، غادر صبحي بيته في الخامسة فجراً متوجهاً إلى عمله. اجتاز الحاجز العسكري المقام على مدخل المخيم، مع غيره من العمال، ثم فقدت آثاره، وعند الظهر أعلنت الشرطة الإسرائيلية اعتقاله في حي الشيخ جراح في القدس بعدما طعن إسرائيليون في محطة الترمواي.



صبحي أبو خليفة مبتسماً لدى اعتقاله

اعتقل الجنود صبحي، ولاحقته كاميرات الصحافة التي وصلت إلى الموقع لمتابعة الحدث. طلب الصحفيون من الجنود المدججين بالسلاح، الذين أحاطوه من جميع الجوانب، أن يُظهروا لهم وجهه، وعندما أطل من بينهم، ابتسم...



لحظة انقضا محمد علي على جندي إسرائيلي

حيّرت ابتسامة صبحي
كثيرين، فهل ابتسم
استهتاراً بالجنود؟ أم
زهواً بما فعل؟ أم كانت
ابتسامة بريئة من شاب
حمل كثيراً من المشاعر
الوطنية والإنسانية، لكنه
لم يكن مقاتلاً عقائدياً؟
أم لأن الابتسامة هي كل
ما لديه ليقوله، بعد هذه
العملية التي ستحملة إلى
خلف القضبان ربما إلى
بقية حياته؟

يمثل صبحي جيلاً
جديداً من الفلسطينيين

فجر الهبة الشعبية التي يطلق عليها البعض اسم "انتفاضة القدس"، وآخرون "هبة القدس".
ومثل كثيرين غيره، لم ينتم صبحي إلى أي من الفصائل والقوى السياسية، ولم ينشغل كثيراً
بالسياسة قبل هذه الهبة، وإنما كان منشغلاً بهواياته وأحلامه الشخصية.
في بيت العائلة الصغيرة الذي تبلغ مساحته ٥٢ متراً مربعاً في هذا المخيم الضيق الذي
يبدو مثل غابة أسمنتية، تقول الوالدة سمر (٤٧ عاماً)، إن ابنها صبحي كان يهتم بالرياضة،



فتاة على خط المواجهة

وبعمله، ويوفر المال من أجل الشقة والزواج. وليس بعيداً عن بيت صبحي في المخيم، كانت عائلة علي تفتح بيت عزاء لابنها محمد، ١٩ عاماً، الذي سقط في عملية طعن في العاشر من الشهر نفسه. وأظهر شريط فيديو كيف استل محمد سكيناً هاجم بها مجموعة من الجنود الذين استفزوه في باب العمود. وقالت عائلته وأصدقائه في المخيم إنه فاجأهم لأنه لم يتحدث في حياته عن السياسة، وعن العمل ضد الاحتلال.

وتكررت المفاجأة في جميع عمليات الطعن التي قام بها شبان فلسطينيون ضد إسرائيليين مثل الفتى إسحاق بدران (١٦ عاماً)، من قرية كفر عقب شمال القدس، ومصطفى الخطيب (١٧ عاماً)، طالب الثانوية العامة، من بلدة صور باهر، وعلاء أبو جبل الموظف في شركة "بيزك" الإسرائيلية، وبهاء عليان الشاب المثقف الحالم من جبل المكبر، والذي نظم مشروع أطول فترة قراءة حول أسوار القدس، إلى فتيات المدارس اللواتي يذهبن إلى مدارسهن ولا يعدن إلا شهيدات، وفي حالات قليلة جريحات ومعتقلات.

الخليل والقدس في قلب الحدث

مدينتا القدس والخليل اللتان احتلتا قلب الهبة الشعبية، تعيشان تهديداً وجودياً بسبب المشروع الاستيطاني اليهودي الذي يعمل على إفراغهما من سكانهما الفلسطينيين، وإحلال المستوطنين اليهود محلهم، ويستولي على المقدسات الإسلامية فيهما، وخصوصاً المسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي.

لماذا تفجرت الهبة في القدس؟

تفجرت الهبة الشعبية في القدس، أولاً، وعكست في عنفها حجم الضغط والقمع الكبيرين اللذين يتعرض لهما سكان المدينة.

وتكفي جولة متأنية في أحياء القدس الشرقية للإجابة عن هذا السؤال، إذ إن ما يواجهنا هو معازل سكانية محاصرة في مناطق صغيرة غير قابلة للتوسع، وتتعرض بصورة شبه يومية لغارات من طواقم البلدية تسفر عن هدم المنازل التي تقام من دون ترخيص بسبب منع البناء فيها، وتجمعات شبه خالية من الخدمات العامة وأماكن الترفيه، ونقص في الخدمات والمدارس وغيرها.

وفي الجهة المقابلة، تطل "الأحياء اليهودية"، أي المستعمرات، بأبنيتها الحديثة والمساحات الخضراء الواسعة، والمراكز الشبابية، والمدارس، والملاعب والمساحات المخصصة للتوسع المستقبلي.

وتبدو الهبة الشعبية هبة احتجاج ضد مصادرة الأراضي والاستيطان وهدم البيوت وسحب بطاقات الهوية، وهبة ضد الإفقار والضرائب الباهظة، وضد النقص المتعمد في كل شيء، وخصوصاً في الخدمات والمدارس.

وتُظهر بيانات "الاتحاد من أجل الحقوق المدنية في إسرائيل" أن القدس الشرقية الفلسطينية تعاني نقصاً شديداً في الغرف المدرسية يبلغ ١٠٠٠ غرفة.

وقد تفاقم الغضب في صدور أهل القدس في الأعوام الثلاثة الأخيرة بعد سماح السلطات الإسرائيلية لمجموعات متزايدة من المستوطنين اليهود باقتحام المسجد الأقصى. ولا يُخفي قادة هذه المجموعات، وبعضهم وزراء في الحكومة، مثل أوري أريئيل وغيره، دعواتهم العلنية إلى إعادة بناء الهيكل في قلب المسجد الأقصى.

ولا تسمح القيود والإجراءات والأنظمة الإسرائيلية للمقدسي العادي بأن يبني بيتاً في القدس، الأمر الذي دفع أكثر من ثلث السكان الفلسطينيين (١٢٠,٠٠٠) إلى الانتقال إلى المناطق القريبة في الضفة الغربية، لأن المساحات المسموح للفلسطيني بالبناء عليها لا تزيد عن ٢٢٪ من مساحة المدينة، بينما حُصص باقي المساحات للمستعمرات. وتفرض السلطات رسوم ترخيص باهظة للبيوت لا تتلاءم مع مداخيل الفلسطينيين المتواضعة.

ويقول "الاتحاد من أجل الحقوق المدنية في إسرائيل" إن ٤٠٪ من البيوت الفلسطينية في القدس مهددة بالهدم لأنها أقيمت من دون ترخيص.

وتتراقب الحركة اليومية للمستوطنين في الأحياء العربية مع وجود مكثف للجيش والأمن، الأمر الذي يعوق حركة المواطنين.

ويعيش في القدس الشرقية اليوم ٣٠٠,٠٠٠ فلسطيني في مقابل ٢٥٠,٠٠٠ مستوطن. ويلتقي الفلسطينيون والإسرائيليون في نقاط احتكاك يومية مثل الحافلات والترمواي وشوارع البلدة القديمة والشيخ جراح والحدائق العامة وغيرها، الأمر الذي يزيد في احتمالات الاشتباك، وإطالة أمد الهبة الشعبية.

وتبين بيانات "اتحاد الحقوق المدنية في إسرائيل" أن السلطات سحبت بطاقات الهوية من ١٤,٥٠٠ مقدسي منذ سنة ١٩٦٧، الأمر الذي يجعل أهل القدس يشعرون بتهديد وجودي دائم. وتقتصر خدمات البلدية في أحياء وبلدات القدس، مثل العيسوية وصور باهر وجبل المكبر وغيرها، على جمع النفايات، مع وجود عدد ضئيل من المدارس والمراكز المحلية. وبحسب المنظمة نفسها، فإن نسبة التسرب من مدارس القدس الفلسطينية تبلغ ٣٤٪، في مقابل ١,٤٪ فقط في الأحياء والمستعمرات اليهودية.

ويقول كثيرون من أهالي القدس إن الانتفاضة بدأت ولن تهدأ إلا إذا توقفت إجراءات مصادرة البطاقات والاستيطان والتمييز العنصري، وكذلك اقتحامات المسجد الأقصى، وبعد أن يشعر المقدسي بأنه يعامل كإنسان سيد في أرضه، وليس عبداً لسلطة الضرائب وسلطة البلدية وسلطة الشرطة التي تقتل المقدسي لمجرد الاشتباه، وحتى من دون ذلك.

مخيم شعفاط

مخيم شعفاط، مثل بارز لسياسة التهميش العنصرية والقمع الإسرائيليين، فهو يبدو مثل أحياء الفقر (slums)، وهو لا يبعد سوى بضعة مئات من الأمتار عن مستعمرة بسغات زئيف التي تبدو قطعة من مدن الغرب الحديث، بمبانيها ومدارسها ومراكزها وعياداتها وحدائقها. طريق المستعمرة محاطة بالأشجار والأزهار على جانبيها، يقابلها طريق المخيم المغمورة بمياه المجاري المتدفقة، وبتربتها التي تحولت إلى اللون الأسود جزاء امتزاجها بآثار إطارات السيارات المحترقة التي يشعلها الشبان في تظاهراتهم اليومية ضد جنود الاحتلال. ويعزل الجيش الإسرائيلي المخيم خلف جدار وحاجز عسكري أشبه بحصن، أو نقطة



الحاجز الإسرائيلي قرب مخيم شعفاط

حدود عسكرية، منه إلى حاجز.

وما إن تجتاز المعبر نحو المخيم حتى تصدمك رائحة النفايات المحترقة والمياه العادمة السوداء.

يقول رئيس لجنة إصلاح بيت المقدس عبد الله علقم، وهو أحد سكان المخيم: "تفرض البلدية الإسرائيلية للقدس على أهالي المخيم كل أنواع الضرائب والرسوم، خاصة ضريبة المباني (الأرنونا)، لكنها لا تقدم لنا إلا الحد الأدنى من الخدمات مثل جمع النفايات وغيرها." في مخيم شعفاط يعيش ٣٠,٠٠٠ مقدسي من حملة الهوية الزرقاء، ويحيط بهم في ضواحي المخيم ٢٠,٠٠٠ تقريباً من حملة هوية الضفة الغربية. وعلى الرغم من أن شوارع المخيم ضيقة، وبيوته متلاصقة بلا فراغات بينها، فإن بدلات إيجارها أعلى من مثيلاتها في أي من مناطق الضفة الغربية بسبب ارتفاع الطلب الناجم عن مخاوف حملة الهوية المقدسية من أن تقوم السلطات الإسرائيلية بسحب بطاقتهم إذا ما سكنوا خارج حدود المدينة.

والمخيم يعيش كأنه في حالة حرب دائمة، إذ لا تكاد تغيب عنه الصدامات مع قوات الاحتلال بشكل يومي، وقد خرج منه عدد من المهاجمين بينهم أطفال صغار مثل علي علقم، ١١ عاماً، ومعاوية علقم، ١٣ عاماً، اللذين قاما بمحاولة طعن في الترموي في التلة الفرنسية، وقد أصيب علي بالرصاص، بينما اعتقل معاوية.

وفي كثير من الأحيان، يعجز الجيش الإسرائيلي، بسبب المقاومة الشرسة لشبان المخيم، عن الوصول إلى هدفه في داخله، ومن الأمثلة لذلك، عجزه عن الوصول إلى بيت صبحي أبو خليفة، بعد قيامه بعملية الطعن، الأمر الذي دفع الجيش إلى إنزال الجنود بواسطة مروحية على أسطح المنازل.

يقول فتى من المخيم عمره ١٦ عاماً، إن الشبان ينتظرون الجيش الإسرائيلي، وعندما



شبان في مدخل المخيم في مواجهة قوات الاحتلال

تدخل دورية عسكرية، يخرج المئات من مختلف الأزقة ويهاجمونها بكل ما تقع عليه أيديهم. ولا ينتظر شبان المخيم وفتيته قدوم الجيش الإسرائيلي إليهم، وإنما يبادرون إلى التوجه إلى المعبر العسكري، فيمطرونه بالحجارة، بعد أن يشعلوا النار في إطارات السيارات وحاويات النفايات.

ولا عجب في تصرّف الشبان هذا، ذلك بأن الجيش الإسرائيلي الموجود في هذا المعبر، يمارس طقوس العقاب الجماعي اليومية على أبناء المخيم.

يقول طارق (١٢ عاماً)، وهو تلميذ في مدرسة الهدى في بلدة شعفاط المجاورة للمخيم: "إحنا رايعين الصبح على المدرسة، الجيش سكروا الحاجز ومنعوا الباصات تمرق (تمر)، واعتقلوا طلاب على الحاجز، وضربوا علينا قنابل غاز وصوت، وهيّا (ها نحن) في الشارع من الصبح (الصباح)، وصرلنا (صار لنا) على هالحال أكثر من أسبوع."

وما يزيد في حدة الصدامات مع جيش الاحتلال، التضييق التام على حياة الفلسطينيين في المخيم، ففضلاً عن نسبة البطالة المرتفعة جداً، والتي تظهر من خلال وجود الشبان الكثيف في الشوارع في أوقات العمل، كونهم عاطلين عنه، فإن سلطات الاحتلال تمنع حتى إمكان اللجوء بما هو متاح، ولو بالحد الأدنى، داخل المخيم وفي محيطه، ولا تُبقي لهم سوى لعبة الصدام العنيفة معه.

يقول محمد (١٥ عاماً)، وهو تلميذ: "ما في بالمخيم غير ملعب واحد، وكل ما نزيبطه (نعيد ترتيبه) بيجي (يأتي) الجيش بخربلنا (يخرّب) إياه، وبضربوا عليه قنابل غاز وقنابل صوت، وبتصير (تحدث) اشتباكات مع ولاد المخيم هناك، وبتعبي (يمتلئ) الملعب حجارة."

ويعيش أهالي شعفاط مثل باقي سكان القدس الفلسطينيين حالة تمييز عنصري. وتُظهر بيانات مؤسسات حقوق الإنسان الإسرائيلية أن نسبة الخدمات التي تقدمها بلدية القدس

الإسرائيلية إلى السكان الفلسطينيين تبلغ ١٥٪ فقط، في مقابل ٨٥٪ إلى السكان اليهود، علماً بأن الفلسطينيين يشكلون ٣٧٪ من نسبة سكان ما يسمى القدس الكبرى التي تضم القدس الغربية والقدس الشرقية. أما في مخيم شعفاط، فإن الخدمات تلامس نسبة ٠٪ على ما يقول مهند مسالمة، المسؤول الإعلامي في لجنة خدمات مخيم شعفاط.

أحياء وقرى القدس الشرقية.. صورة طبق الأصل

وتتكرر الصورة نفسها في سائر أحياء القدس الشرقية وقرائها وبلداتها. فأحياء القدس الشرقية وقرائها تتعرض لحملة استيطانية منفصلة تتركز في البلدة القديمة وسلوان والشيخ جراح وجبل المكبر وغيرها، وتهدف إلى إسكان المستوطنين المتطرفين فيها. ويقول أهالي سلوان إن المنظمات الاستيطانية مثل "إعاد" و"عطريت كوهنيم" وغيرها، أقامت ٨٢ بؤرة استيطانية داخل البلدة، وهي تستولي بشتى الوسائل على البيوت والعقارات، وتحولها إلى مراكز للمستوطنين المتطرفين الذين يعتقدون على الناس بهدف إجبارهم على الرحيل.

ويؤكد شبان الجيل الجديد، خلال جولة في جبل المكبر والعيسوية وصور باهر، أن القمع الذي تمارسه السلطات الإسرائيلية على أهالي القدس يعزز إرادة مواجهة الجيش الإسرائيلي عبر الخروج إلى الشوارع للتظاهر والقيام بعمليات طعن.

يقول محمد أبو جمل (٧٠ عاماً)، وهو والد الشهيد غسان أبو جمل وعم الشهيد علاء وعُدي أبو جمل، إن إسرائيل أوصلت الشباب المقدسي خاصة، والفلسطيني عامة، إلى الانفجار. ويضيف: "ما الذي يدفع هؤلاء الشبان إلى ترك عائلاتهم والتضحية بأرواحهم؟ إنها إسرائيل، فهي التي أوصلتهم إلى مرحلة اللاعودة. سلبت منهم كل شيء وأفقدتهم الأمل في أي شيء."

وقد ترك الشهيد علاء (٣٥ عاماً)، وراءه أسرة مؤلفة من زوجة و٣ أطفال، وكذلك الشهيد غسان (٣٢ عاماً، ولديه أسرة من زوجة و٣ أطفال) الذي سقط وابن عمه عُدي (٢٢ عاماً)، في هجوم على الكنيس اليهودي في القدس الغربية.

وكان علاء أبو جمل يعمل موظفاً في شركة الاتصالات الإسرائيلية، واستخدم في الهجوم



علاء وعُدي وغسان أبو جمل

الذي قام به على محطة للحافلات في مدينة تل أبيب، سيارة كانت الشركة قد خصصتها له. وهدم الجيش الإسرائيلي منزلي غسان وعُدي في تشرين الأول / أكتوبر الماضي، الأمر الذي أدى إلى انهيار عدد من البيوت المجاورة، بينها بيت معاوية شقيق غسان. ويقول معاوية: "كلما هدموا بيتاً خلقوا مئات المحاربين." ويضيف: "هؤلاء الأطفال الذين يشردهم الجيش الإسرائيلي بعد تدمير بيوتهم ماذا سيفعلون عندما يكبرون؟ سيحاربون انتقاماً."

ويؤكد معاوية: "لا يوجد أقسى على الإنسان من أن تقتله من بيته."

الخليل عاصمة الغضب

يغطي شعار "الخليل عاصمة الغضب الفلسطيني" العديد من جدران المدينة، وخصوصاً في منطقة "H2" الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية، والتي تشكل ثلث مساحة المدينة، وفي القلب منها البلدة القديمة والحرم الإبراهيمي الشريف.

ويعيش في الخليل التي تشهد صدامات يومية بين الفلسطينيين وجيش الاحتلال، ٨٥٠ مستوطناً حولوا حياة سكانها إلى جحيم، وهم يتمركزون في ٤ بؤر استيطانية في قلب البلدة القديمة.

ويقول عيسى عمرو رئيس مجموعة "شباب ضد الاستيطان" الناشطة في البلدة القديمة: "المستوطنون يعتدون على الناس في سعي لطردهم والحلول مكانهم." ويضيف: "وجيش الاحتلال جزء من المخطط، فهو هنا كي يحمي المستوطنين، ويشارك بالاعتداء على الفلسطينيين."

ويغلق الجيش الإسرائيلي شارع الشهداء وسط مدينة الخليل الذي يضم مئات المحال التجارية، بحجة توفير الأمن للمستوطنين في الخليل. ويقول رئيس البلدية داود الزعتري إن إغلاق شارع الشهداء ومحيط الحرم الإبراهيمي ألحق ضرراً بالغاً بأهالي المدينة. ويضيف: "ما يفعله الجنود يكمل ما يفعله المستوطنون، وهو الضغط على الناس من أجل مغادرة المدينة ليحلّ المستوطنون مكانهم." ويتابع: "استولى المستوطنون على أكثر من نصف الحرم الإبراهيمي، وعلى العديد من البيوت والبنائات في البلدة القديمة، وكل يوم يتوسعون، والهدف هو تهويد المدينة."

وفضلاً عن قلقهم إزاء ما يجري في مدينتهم، فإن أهالي الخليل يعيشون قلقاً بشأن المسجد الأقصى نابعاً من تجربتهم في الحرم الإبراهيمي.

ويقول مدير الحرم الشيخ منذر أبو الفيلات: "بدأ اليهود بزيارة الحرم الإبراهيمي، كما يزورون اليوم المسجد الأقصى، ثم ارتكب أحدهم (باروخ غولدشتاين) مجزرة في الحرم في سنة ١٩٩٤ قُتل فيها ٢٩ مصلياً، وجرح العشرات، فقامت السلطات بتشكيل لجنة (لجنة شنغار) خلّصت إلى تقسيم الحرم ومنح اليهود ٥٧٪ من مساحة المبنى، ومنحهم حديقة الحرم طوال العام، باستثناء عشرة أيام في السنة يُسمح لنا باستخدامها."

ويتعرض سكان الخليل لاعتداءات يومية من المستوطنين الذين يلقون الحجارة عليهم تحت سمع وبصر آلاف الجنود الموجودين هناك لحماية المستوطنين وتقييد حرية

الفلسطينيين.

وبخلاف سائر سكان الضفة الغربية الذين عاشوا العقد الأخير تحت إدارة السلطة الفلسطينية، فإن سكان الخليل والقدس عاشوا تحت السلطة الإسرائيلية الكاملة (أمنياً وإدارياً)، الأمر الذي جعل معاناتهم مستمرة لم تتوقف.

يقول أحد سكان البلدة القديمة: "انظر إلى أولاد المستوطنين يلقون الحجارة والقاذورات علينا، لكن لو حدث أن ألقى ولد فلسطيني حجراً عليهم، فإن هؤلاء الجنود سينقضّون عليه ويعتقلونه، هذا في أحسن الحالات، وفي أسوأها سيطلقون النار عليه ويقتلونه." وتتبع إسرائيل سياسة أمنية وعسكرية شديدة إزاء الهبة الشعبية. ويقوم الجنود بفتح النار بهدف القتل على كل من يشتبهون في نيته القيام بعمليات طعن، بينما يتوسعون في استخدام الأسلحة "غير القاتلة" مثل الغاز المسيل للدموع، والرصاص المعدني المغلف بالمطاط، والعيارات النارية من نوع ٢٢.

خرج الشاب مهدي المحتسب (٢٣ عاماً)، من منزله في الخليل صباح ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر، متوجهاً إلى عمله في محل للحلويات، وفي مساء ذلك اليوم، كان من المقرر أن يرافق مهدي عائلته إلى بيت الفتاة التي رشحتها له والدته لتكون شريكة حياته، كي يتفقا على إجراءات الخطبة. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وتحولت مشاعر البهجة إلى حزن عميق، عندما أوقف جنود أحد الحواجز العسكرية الإسرائيلية مهدي، وطلبوا منه إظهار بطاقته الشخصية، ثم سمحوا له بالمرور. وبعد أن سار عدة أمتار، ناداه أحد الجنود، طالباً منه التوقف، ثم اقترب منه، ودار بينهما نقاش انتهى بإطلاق النار على مهدي. وعند سماع دوي إطلاق النار، سارع الناشطون في البلدة القديمة إلى الموقع، والتقط أحدهم صورة مهدي وهو مصاب يتخبط في دمه على الأرض، والجندي يقف على مقربة منه، مصوباً سلاحه



جنود الاحتلال فوق جثة مهدي المحتسب بعد إعدامه

نحوه. يتحرك جسد مهدي قليلاً من شدة الألم محاولاً النهوض، فيطلق الجندي النار عليه من جديد حتى تخمد حركته كلياً. وبعد قليل تعلن السلطات الإسرائيلية أن مهدي المحتسب قُتل برصاص الجيش جرّاء محاولته طعن أحد الجنود على حاجز عسكري وسط المدينة القديمة. يقول شكري المحتسب، عم الشهيد مهدي: "كل الدلائل تبين أنهم (الجنود) قتلوا مهدي بدم بارد. خرج مهدي من البيت وهو يتحدث عن خطته للمستقبل، عن الزواج والبيت والعائلة، والكل شاهد الجندي وهو يطلق النار عليه ويقتله بدم بارد."

وقالت منظمة العفو الدولية في بيان لها إن الجنود الإسرائيليين يتلقون تعليمات تسمح لهم بقتل فلسطينيين على الاشتباه. وأكدت تحقيقاتها أن عدداً من الضحايا لم يكونوا ينوون القيام بأي عملية طعن.

وأكد مدير "الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان" في مدينة الخليل المحامي فريد الأطرش، أن "التحقيقات التي أجريناها بيّنت أن عدداً كبيراً من شهداء الخليل سقطوا برصاص الجنود من دون أن يقوموا بأي شيء يثير الشبهات، وأن الجنود قتلوهم بدم بارد." وأضاف أن "الجنود في الخليل هم من المستوطنين والمتدينين الذين يخزنون عداً كبيراً للفلسطينيين، ويستغلون أية فرصة للاعتداء عليهم."

وفي حادثة إعدام أخرى، بيّنت الصور التي التُقطت للفتاة دانيا أرشيد (١٦ عاماً)، التي جرى إطلاق النار عليها، داخل بوابات الحرم الإبراهيمي، أنها لا تحمل ما يثير الاشتباه، وأنها كانت في موقع يمكن اعتقالها فيه من دون عواقب.

وقالت منال الجعبري التي تعمل متطوعة لدى منظمة "بتسيلم" الإسرائيلية لحقوق الإنسان، وكانت على مقربة من موقع الجريمة: "كانت دانيا قد دخلت الباب الدوار الأول، ووقفت عند الباب الدوار الثاني، ثم أطلق عليها أحد الجنود النار." وأضافت: "عندما شاهدت



الشهيدة دانيا أرشيد مضرجة بدمائها بعد إعدامها

الجندي يطلق النار، رفعت الكاميرا كي ألتقط صورة لها، فأطلق النار مجدداً وأرداها قتيلة". وأكملت: "كانت دانيا بعيدة عن الجنود، وكانت تحت سيطرتهم فيما لو أرادوا اعتقالها، وكان يمكنهم إصابتها بجروح غير قاتلة، لكنهم قتلوها من دون تردد."

يؤكد جهاد أرشيد، والد الشهيدة دانيا، أن ابنته الصغيرة كانت منشغلة بدراساتها، وأنها دأبت على التوجه إلى الحرم الإبراهيمي عصر كل يوم، بعد المدرسة، من أجل الصلاة. وأضاف: "ابنتي طفلة صغيرة، ليس باستطاعتها أن تطعن أحداً، ولم تخطط لطعن أحد، وأتحداهم أن يُظهروا الصور التي سجلتها كاميراتهم داخل المبنى."

وفي عملية إعدام الثالثة موثقة، صوّر ناشطو مجموعة "شباب ضد الاستيطان" في الخليل جندياً إسرائيلياً وهو يضع سكيناً إلى جوار شاب قتله مستوطن على مقربة من الحرم الإبراهيمي.

وقال عيسى عمرو، رئيس المجموعة إن "الجنود في الخليل لا يترددون في قتل شبان، وإلقاء سكاكين إلى جوارهم لتبرير جرائمهم."

كما حدثت محاولات طعن فاشلة قام بها مراقبون بصورة غير احترافية قادتهم إلى الوقوع ضحايا على يد الجنود والمستوطنين الإسرائيليين الذين يحملون السلاح، والذين تسمح لهم السلطات بالقتل لمجرد الاشتباه.

وأظهرت فيديوهات التّقطت لمحاولات طعن أن المهاجمين كانوا فتیاناً وفتيات في مقتبل العمر، أرادوا القيام بعمل كبير من دون أي حسابات للنجاح أو الفشل.

إن الردود الإسرائيلية الدموية المنفلتة على محاولات الطعن الطفولية هذه، صبّت مزيداً من الوقود على النار المشتعلة، فكانت تتوالى محاولات الطعن بعد كل عملية إعدام يتعرض لها أصحاب تلك المحاولات.

السلطة الفلسطينية: لانتفاضة بلا رصاص

واتّبعت السلطة الفلسطينية سياسة تقوم على منع تحوّل الهبة الشعبية إلى مواجهة مسلحة مفتوحة مع إسرائيل.

وعقد الرئيس محمود عباس، لهذه الغاية، سلسلة اجتماعات مع قادة أجهزة الأمن وقادة حركة "فتح" في المحافظات، وأبلغهم تعليمات واضحة بالحفاظ على الطابع الشعبي السلمي للهبة الشعبية، وعدم السماح بتحوّلها إلى مواجهة مسلحة. وقال مسؤول أمني شارك في هذه الاجتماعات: "وجّه لنا الرئيس تعليمات واضحة تقضي بمنع أي إطلاق نار في هذه الهبة الشعبية، واعتقال أي شخص يحاول ذلك، ووضع في السجن". وأضاف: "إذا ذهب إلى أي من نقاط الاحتكاك مع جيش الاحتلال تجد عدداً كبيراً من رجال الأمن يرتدون الزي المدني. هؤلاء موجودون هناك لمنع أي مسلح من الاقتراب من المكان وإطلاق النار، وهم أيضاً موجودون كي يتحدثوا مع المتظاهرين ويحتوهم على الحفاظ على الطابع السلمي للهبة الشعبية."

ويكمل: "نحن تعلمنا درساً قاسياً في الانتفاضة الثانية حين كان المسلحون يطلقون النار من وسط المتظاهرين، أو من قلب الأحياء السكنية، فبرّد الجيش الإسرائيلي بقصف

المكان، ما يؤدي إلى سقوط أعداد كبيرة من الضحايا، لذلك لن نسمح لأحد بتكرار ذلك. سنعتقل مَنْ يحاول ذلك، وسنطلق النار عليه لو اقتضى الأمر". وأوضح هذا المسؤول أن دوريات أمن فلسطينية موجودة بصورة غير مرئية في الأحياء المجاورة للمستعمرات لمنع حدوث اشتباكات مسلحة خشية أن ينجم عنها قصف التجمعات الفلسطينية.

انتفاضة من نوع آخر ومستمرة

لقد وجدت السلطة الفلسطينية نفسها أمام ضرورة تغيير قواعد المعادلة الأمنية مع إسرائيل بعد أن فقدت أي أمل بحدوث تقدّم في العملية السياسية، فسمحت للمتظاهرين بالاشتباك مع الجيش الإسرائيلي على مداخل المدن، من دون أن تكون قادرة على التنبؤ بالهجوم التالي، لأن هذه الهجمات ذات طابع فردي، غير منظم، وتعتمد السلاح الأبيض (السكاكين) وليس السلاح الناري.

ويُتوقع أن تستمر الهبة الشعبية فترة طويلة، لأن ما يحركها هو رغبة الجيل الجديد من الفلسطينيين، في الرد والاحتجاج على ممارسات الاحتلال، وخصوصاً الاستيطان والتهويد والتمييز العنصري واستهداف المقدسات. ويرى بعض المراقبين أن ثمة احتمالاً في نشوء اتجاهات سياسية جديدة بين الأجيال الشابة، بعيدة نسبياً عن الفصائل التقليدية، بعد أن وصلت مشاريع تلك الفصائل إلى طريق يري كثيرون من أبناء هذا الجيل أنها "طريق مسدودة". ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بترول شرق المتوسط: الأبعاد الجيوسياسية

تحرير: وليد خدوري

١٦٣ صفحة ٨ دولارات